مناهج وتقنيات البحث في الأنثروبولوجيا

تشترك الأنثروبولوجيا مع كثير من العلوم في العديد من المناهج والطرق البحثية، لكنها تتميز بتركيزها على بعض المناهج والطرق باعتبار طبيعتها وموضوعها الخاص (دراسة الإنسان في جميع جوانبه دراسة ميدانية)، ولهذا نجد الأنثروبولوجيا تستخدم المناهج التي تستخدمها العلوم الاجتماعية عامة، بل وحتى بعض المناهج المستخدمة في حقل العلوم الطبيعية مثل المنهج التجريبي، ويرجع هذا إلى اشتمال الأنثروبولوجيا على دراسة الشق الفيزيقي في الإنسان إلى جانب الشق الاجتماعي والثقافي، غير أن الأنثروبولوجيا بإمكانها استخدام المنهج التجريبي حتى في شقها الاجتماعي والثقافي، باعتبار أن المنهج التجريبي هو المنهج الذي عملت العلوم الاجتماعية وخاصة في مجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا على استعارته عند محاولة التأسيس العلمي لها، وفي هذا الصدد نجد دعوة أوائل علماء الاجتماع لاستخدام هذا المنهج، كما نجد بعض مؤسسي الأنثروبولوجيا الاجتماعية أيضا يدعون لاستخدامه وعلى رأسهم **راد كليف براون** الذي ينظر للمجتمع باعتباره نسقا طبيعيا، أي أنه محكوم بقوانين كتلك التي تحكم الطبيعة، غير أن اتصال الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بالجانب الثقافي والأخلاقي جعل الباحثين في هذا المجال يركزون أكثر على بعض المناهج المناسبة لطبيعة هذا الفرع المعرفي.

- تعريف المنهج العلمي:

يراد بالمنهج لغة الطريق الواضح، أما إصطلاحا فيراد به مجموعة القواعد التي يتم وضعها بقصد الوصول الى الحقيقة، أي الطريقة التي يتبعها الباحث لدراسة المشكلة من أجل اكتشاف الحقيقة، ويرمز للمنهج بالأسلوب أو الطريقة أو النظام، ومنه يعد المنهج الطريقة العلمية والمنطقية التي يتبعها الباحث للتعامل مع المواضيع العلمية المختلفة.

- وفيما يلي عرض لأهم المناهج التي تستخدم في الدراسات الأنثروبولوجية، مع التركيز بشكل أساسي على المنهج الإثنوغرافي الذي يعتبر المنهج الذي تنفرد به الأنثروبولوجيا مقارنة بالمناهج الأخرى التي تشترك فيها مع علوم أخرى.

أولا- المنهج التاريخي:

يعتبر المنهج التاريخي أحد أهم المناهج المستخدمة في الدراسات الأنثروبولوجية والثقافية بشكل خاص، لذلك يؤكد أصحاب المدرسة التاريخية على أهمية مفهوم "**التاريخ الثقافي**"، ويرى "**ميتلند**" أن الأنثروبولوجيا **عليها أن تختار بين أن تكون تاريخية أو ألا تصبح شيئا على الإطلاق**، وهي نفس رؤية "**بيركت سميت**" الذي يرى أن الحاضر لا يمكن فهمه إلا كنتاج للماضي، بذلك فإن "المشكلة الإثنولوجية" كما يتصورها سميث هي مشكلة تاريخية في جوهرها.

وتتجه الأنثروبولوجيا مثلما يرى "**سابير**" ليعترف بها بأنها علم تاريخي أساسا، ذلك أن المعلومات التي يتم الحصول عليها لا يمكن فهمها في ذاتها أو في صلتها ببعضا البعض، ولكن بوصفها نهاية تتابع

معين للأحداث، لذلك لا بد من توافر نوع من الفهم التاريخي للوقائع باعتبارها الهدف الإثنولوجي الخاص بالباحث.

ويعتبر البحث التاريخي للثقافة مطلبا هاما وأساسيا في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية، ذلك ما يبين الاهتمام الواضح بنشأة الثقافة وتطورها وأصولها، وعملية إعادة بناء الثقافة، وكذلك الكشف عن التتابع الزمني الذي حدثت فيه احتكاكات واتصالات ثقافية بين الجماعات والشعوب. كما أن الاهتمام بتاريخ الإنسان هو أحد المصادر الأساسية للدراسات الأنثروبولوجية، ويتضح ذلك في الدراسات المقارنة للمجتمعات والنظم الاجتماعية، وفي محاولة إعادة بناء تاريخ مجتمعات معينة، كما يتضح أيضا في اتجاه المدرسة الأمريكية للأنثروبولوجيا نحو الاهتمام بالمصادر التاريخية فيما يعرف ب "الذاكرة الثقافية" وهي تشير إلى الاعتماد على ذاكرة كبار السن من القبائل الهندية للحصول على معلومات من هذه القبائل.

- ويعتمد علماء الأنثروبولوجيا والمهتمين بتاريخ الشعوب على ثلاث مصادر ومناهج رئيسية في تحقيق أهدافهم هي:

أ- **الوثائق المكتوبة:** فبرغم الصعوبات التي تواجه الاعتماد على هذه الوثائق وخاصة في المجتمعات التي لا توجد فيها وثائق مدونة، إلا أن محاولات حديثة تبذل لجمع مادة يمكن الاعتماد عليها في تكوين بعض المعلومات المنظمة عن هذه المجتمعات.

ب- **التراث الشفهي:** حيث يغطي التراث الشفهي أنواع متعددة من الظواهر والأنظمة والعلاقات الاجتماعية، ويمكن أن نعثر على التراث الشفهي من دراسة هذه الظواهر الاجتماعية حيث تكشف عن أهمية الاعتماد على هذا المصدر في البحوث التاريخية الأنثروبولوجية.

وما يمكن التأكيد عليه، هو أنه عند استخدام المنهج التاريخي في البحث الأنثروبولوجي لا يجب التعمق في التاريخ حتى الوصول إلى هيرودوت، بل المهم هو الرجوع الى الماضي بالقدر الذي يسمح بتتبع أثر ذلك على المشكلات الإنسانية الحاضرة. من العلماء الأنثروبولوجيين الذين استخدموا المنهج التاريخي في البحث االنثروبولوجي، فعلى سبيل المثال لا الحصر من المدرسة الأمريكية؛ **فرانز بواس** الذي أعطى أهمية كبيرة للبعد التاريخي من خلال الكشف عن النمو التاريخي للتنظيمات الاجتماعية والمجتمعات السرية وانتشار الأشكال الفنية والقصص الشعبي في الساحل الشمالي الغربي لأمريكا الشمالية. إضافة إلى **ألفريد كروبير** الذي اهتم بالبعد الزمني والمكاني للوقائع واعتبر أن البعد الزمني وحده يعد مفهوما منهجيا ضيقا. في حين تأثرت **وروث بنديكث** بالمفهوم الزمني عند بواس، واعتبرت أن كل ثقافة قد مرت بعملية دينامية، وأن تاريخ الفرد يمثل محاولة مستمرة للمواءمة مع الأنماط الثقافية

كالأعراف والعادات والمعتقدات التي تساهم في تشكيل خبراته وسلوكه، وهكذا جمعت بيت التفسيرين التاريخي والسيكولوجي في فهم الظواهر الثقافية ضمن كتابها "زهرة الكرايزانتيم والسيف عام 1946م". أما المدرسة البريطانية فقد مارست المنهج التاريخي في البحث الأنثروبولوجي من خلال **ايفانز بريتشارد** في كتابه "السنوسية في برقة" عام 1949م، أين عالج فيها نمو الدعوة السنوسية في ليبيا من الناحيتين الدينية والسياسية، ولم يكن من الممكن إظهار الدور السياسي للدعوة السنوسية إلا من خلال المعالجة التاريخية.

من جانب آخر اعتمد كل من **فولتير** و**جوستاف كلم** و**لويس مورجان** و**تايلور** على المصادر التاريخية في إقامة مقارنات عن الثقافة والمجتمع في محاولة إعادة بناء تاريخ مجتمعات بعينها، وتمت دراسة المظاهر والأنماط والسمات السائدة في سائر الثقافات والحضارات. أما أصحاب المدرسة التطورية فاهتموا بتتبع المراحل التي مرت بها الثقافة وما طرأ عليها من تغير وتعقيد. في حين اهتمت مدرسة الانتشار الثقافي بتتبع السمات والعناصر الثقافية لإعادة تركيب ماضيها التاريخي.

- وتتمثل خطوات المنهج التاريخي في البحث الأنثروبولوجي حسب الباحثين فيما يلي:

1. **تحديد الإطار النظري:** أي الرؤية النظرية العلمية (تبني نظرية)؛
2. **تحديد وحدة التحليل التاريخي:** وقد تكون زمانية كتحديد فترة معينة لتحليل معطياتها، أو تكون هذه الوحدة مجموعة من الجماعات أو نظاما أو ظاهرة؛
3. **تحديد مصادر جمع البيانات:** سواء كانت غير ميدانية مثل الوثائق والسجلات وكتابات المؤرخين، أو ميدانية مثل المقابلات مع كبار السن، أو المعايشين أو المعاصرين لحادثة ما.
4. **تحديد تقنيات جمع المعطيات أو البيانات:** وكيفية معالجتها وتحليل البيانات والمعلومات واستخلاص الأدلة من الوثائق أو المقابلات للوصول إلى نتائج تقوم عليها حقائق جديدة .وتتمثل في عملية النقد التاريخي؛ –تحليل وصف المعلومات وتفسيرها – نقد (النقد الخارجي أو نقد التحصيل، والنقد الباطن الإيجابي و النقد الباطن السلبي)؛
5. التنقيب عن الأمانة والدقة؛
6. العملية التركيبية للأحداث.

ثانيا- المنهج المقارن:

ينطبق المنهج المقارن عل الأنثروبولوجيا بجميع فروعها ومجالاتها الدراسية، فأي بحث أنثروبولوجي ينطوي بالضرورة على مقارنات بين متغيرن أو أكثر، ويقصد بالمنهج المقارن في مجال الأنثروبولوجيا دراسة الظواهر الاجتماعية في مجتمعات مختلفة أو أنماط محددة من المجتمعات، ومقارنة النظم الاجتماعية من حيث استمرارها وتطورها والتغير الذي يطرأ عليها، أو حتى مقارنة مجتمعات بعضها ببعض.

➢ وتتحدد مجالات المقارنة في الدراسة الأنثروبولوجية في النقاط التالية :

– دراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الأنماط الرئيسية للسلوك الاجتماعي.

– دراسة نمو وتطور مختلف أنماط الشخصية والاتجاهات السيكولوجية والاجتماعية في مجتمعات مختلفة وثقافات متعددة.

– دراسة النماذج المختلفة من التنظيمات (تنظيمات سياسية – بيروقراطية – صناعية– مهنية. .الخ، وكذلك دراسة النظم الاجتماعية المختلفة (الزواج –الأسرة – القرابة...) وذلك في مجتمعات مختلفة.

– تحليل ومقارنة مجتمعات بأكملها، وخاصة من خلال النمط الرئيسي السائد للنظم الاجتماعية والثقافية.

وفي الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية يميل بعض الأنثروبولوجيين وخاصة في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى تركيز دراساتهم في مجتمع واحد أو عدد قليل من المجتمعات، هذا الذي يعرف بِـ "**تقليد مالينوفسكي**"، لأن مالينوفسكي كان يرى أن فهم ثقافة شعب من الشعوب البدائية لا يمكن له أن يكون إلا من خلال دراستها دراسة معمقة، لذلك دعا إلى ضرورة تخصص الباحث الواحد في مجتمع واحد فقط أو على الأكثر ثلاثة مجتمعات لا يزيد عليها، وذلك ما كان لمالينوفسكي حيث قضى أربع سنوات كاملة في دراسته لقبائل " التروبرياند "بمنطقة" ميلانيزيا "تعلم خلالها لغة الأهالي وتعمق في حياتهم الاجتماعية، لكن هذه الطريقة –ولاشك – تتعارض مع إجراء المقارنات بين الأبنية الاجتماعية المختلفة.

يلاحظ إيفانز بريتشارد هذا التعارض ويدعو إلى نوع من المقارنة من خلال قيام كل أنثروبولوجي باستنتاج عدة نتائج من دراسته لمجتمع واحد، ثم يقوم هذا الباحث أو باحثون آخرون بالتحقق من صحة وواقعية تلك النتائج بالنسبة لمجتمعات أخرى، وهذا ما قام به " شنيدر" حين فحصه للنتائج التي توصل إليها " بريتشارد " في دراسته لقبائل " النوير" من خلال تطبيقها على قبائل " الزولوا ".

وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن هذه المقارنات التي قام بها هؤلاء العلماء تمت في سياق "أكاديمي"، وهي بذلك تختلف عن تلك المقارنات التي رافقت الأنثروبولوجيا التقليدية التي أقامها الرحالة والمبشرون والعسكريون والتي كانت غير موضوعية في أساسها.

➢ أما الصعوبات المنهجية والنظرية في تطبيق المنهج المقارن، فإن بناء الأنماط من أجل المقارنة يطرح عدداً من المشكلات المنهجية والنظرية يمكن تلخيصها فيما يلي:

– مشكلة اختيار وحدة المقارنة التي على أساسها سوف تتحدد المتغيرات الرئيسية في البحث.

– مشكلة تحديد المؤشرات التي نقارن على أساسها بين المتغيرات، حيث تختلف هذه المؤشرات تبعا لاختلاف وحدة المقارنة.

– مشكلة إمكانية المقارنة بالنسبة لكل وحدة من وحدات المقارنة.

– مشكلة المعاينة، فالعينات الصغيرة نسبيا لوحدات المقارنة تثير تساؤلا عن مدى إمكانية صياغة مقارنات متعمقة تجريبية، والمشكلة المنهجية القائمة بالنسبة للعينات عموما هي مدى تمثيل هذه العينات للمجتمع الأصلي.

ثالثا- المنهج البنائي الوظيفي:

رغم محاولة ابتعاد الاتجاه الوظيفي عن تلك المقارنات التي حاولت أن تعزل النظم الاجتماعية عن سياقها "البنائي"، إلا أن المقارنة بقيت لها قيمتها في التحليل الوظيفي، فقد رأى بعض العلماء أن الاتجاه الوظيفي هدفه هو التوصل إلى تعميمات تتعلق بالصلات المتبادلة بين النظم في المجتمعات ذات الطبيعة الخاصة، وتصنيف المجتمعات من أجل إدراك نقاط التشابه بينها، لهذا حاول الاتجاه الوظيفي المزاوجة بين التحليل الوظيفي والمقارنة في الدراسات الأنثروبولوجية، من خلال محاولة تناول الظواهر الاجتماعية في سياقها الكلي، وكذلك التعرف على الأدوار والوظائف التي يؤديها كل نظام بالنسبة للبناء الاجتماعي الكلي.

ولقد عارض **مالينوفسكي** نظرة بعض العلماء خاصة المنتمين منهم للمدرسة الأمريكية، والذين ينظرون للثقافة باعتبارها مجموعة من العناصر المنفصلة والمتباينة من حيث نشأتها، حيث رأى **مالينوفسكي** وبنظرة –وظيفية– أن كل ثقافة هي عبارة عن كيان كلي وظيفي متكامل شبيه بالكائن الحي لا يمكن فهم جزء منه إلا بالرجوع إلى الأجزاء الأخرى، كما سعى **مالينوفسكي** إلى تحديد الوظيفة النهائية للثقافة الإنسانية، في الوقت الذي يوجه **راد كليف براون** نظرته للمجتمع وليس للثقافة، فيؤكد أن المجتمع يتألف من أجزاء متداخلة وظيفيا هدفها وصف وتصنيف الأبنية والظواهر المجتمعية، والوصول بالتالي إلى صياغة القوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية.

لذلك فإن المنهج البنائي الوظيفي يهتم اهتماما كبيراً ببناء الثقافة، والعلاقة القائمة بين أجزائها، كما يهتم أيضاً بدراسة المجتمع والثقافة والعلاقات المتداخلة والمتشابكة بينهما، والتي تتساند مع بعضها تساندا وظيفياً.

رابعا- المنهج الوصفي:

يعد المنهج الوصفي من المناهج العامة في الأنثروبولوجيا، ويقصد به الطريقة المنتظمة لدراسة حقائق راهنة متعلقة بظاهرة أو موقف أو أفراد وأحداث أو أوضاع معينة في المجتمع بهدف اكتشاف حقائق جديدة أو التحقق من صحة حقائق قديمة وآثارها والعلاقات التي تتصل بها وتفسيرها وكشف الجوانب التي تحكمها. ويعرف المنهج الوصفي على أنه:" منهج لا يتوقف عند حدود وصف الظاهرة موضوع البحث، ولكنه يذهب إلى أبعد من ذلك فيحلل ويقارن ويفسر، حيث يلاحظ أن وظيفة البحث الوصفي تتمثل في وصف ما هو كائن وتفسيره، وهو منهج يهتم بتحديد الممارسات السائدة أو الشائعة أو التعرف على المعتقدات والاتجاهات عند الأفراد والجماعات، وطريقتها في النمو والتطور"، حيث يرتكز

المنهج الوصفي على وصف دقيق وتفصيلي لظاهرة أو موضوع محدد على صورة نوعية أو كمية رقمية، وقد يقتصر على وضع قائم على فترة زمنية محددة أو تطوير يشمل فترات زمنية عدة.

حيث يهدف المنهج الوصفي إما إلى رصد ظاهرة أو موضوع محدد من أجل فهم مضمونها، أو قد يكون هدفه الأساسي تقويم وضع معين لأغراض عملية، بشكل عام يمكن تعريفه على أنه أسلوب من أساليب التحليل المرتكز على معلومات كافية ودقيقة عن ظاهرة أو موضوع محدد من خلال فترة أو فترات زمنية معلومة، وذلك من أجل الحصول نتائج عملية ثم تفسيرها بطريقة موضوعية، وبما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة؛ فهو منهج يهدف كخطوة أولى إلى جمع بيانات كافية ودقيقة عن ظاهرة أو موضوع اجتماعي وتحليل ما تم جمعه من بيانات بطريقة موضوعية كخطوة ثانية، تؤدي إلى التعرف على العوامل المكونة والمؤثرة على الظاهرة كخطوة ثالثة، اعتمادًا على مختلف طرق جمع البيانات، فهو يعتمد على دراسة الظاهرة كما هي موجودة في الواقع ويهتم بوصفها بدقة، كما يعتبر المنهج الوصفي أحد أشكال التحليل والتفسير العلمي المنظم لوصف ظاهرة أو مشكلة محددة وتصويرها كميًا، عن طريق جمع البيانات والمعلومات عن ظاهرة أو مشكلة معينة وتصنيفها وتحليلها وإخضاعها للدراسة الدقيقة.

ويهدف المنهج الوصفي إلى وصف الظاهرة محل الدراسة وتشخيصها وإلقاء الضوء على جوانبها المختلفة وجمع البيانات اللازمة عنها مع فهمها وتحليلها من أجل الوصول إلى المبادئ والقوانين المتصلة بظواهر الحياة والعمليات الاجتماعية الأساسية والسلوكيات الإنسانية. وغالبا ما يخرج فيها الباحث الأنثروبولوجي بمبادئ عامة عن البناءات والتنظيمات الاجتماعية والتغير الثقافي أو عملية الإقتباس ...إلخ.

خامسا- الإثنية المنهجية "الإثنوميتودولوجية":

عمل هارولد غارفينكل لخلال الستينات على تأسيس ما سمي بـ "المنهجية الإثنية" éthnométhodologie لتشكل منهجا تحليليا متميزا في حقلي علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وقد راحت الإثنوميثودولوجيا تهتم بالدراسات الميكروسوسيولوجية، وبالأبحاث الميدانية، وتركيزها على دراسة التفاصيل الصغيرة، مع إسقاط للتحليل النظري والاستعاضة عنه بالوصف الدقيق للمشهد الميداني مع اهتمام كبير بتفسيره، ومن خلال كتابه "**دراسات في المنهج الإثني**" الصادر عام 1967 حاول **غارفينكل** أن يفهم الطرق التي يعمل بها الأفراد وكيفية تصرفهم خلال المواقف التي تعترضهم في الحياة، بما يملي على عالم الاجتماع والأنثروبولوجي ليرجع إلى الفرد ذاته في اتصاله بالعالم الاجتماعي من أجل الفهم، وكان غارفينكل ومن خلال "الإثنية المنهجية" متأثرا إلى حد بعيد بما طرحه "ألفرد شوتز" والذي يمثل تيار الفينومينولوجيا (الظاهراتية) في علم الاجتماع.

لقد اتبع غارفينكل شوتز من خلال منهجية تحليلية تعتمد على محاولة فهم الحياة اليومية للأفراد، وحاول دراسة المناهج والطرق المستعملة من قبل أفراد المجتمع بغرض بناء وتفسير العالم الاجتماعي، ومن هذا المنطلق كانت مهمة الإثنوميثودولوجيا هي الاهتمام بكيفية تنظيم الفرد لحياته في المجتمع بما يضفي معنى على مختلف الأنشطة التي يقوم بها، فالباحث الإثنوميثودولوجي يستفيد من هذه الطرق والأساليب التي يستخدمها أفراد الجماعة من أجل فهم عملية التفاعل الاجتماعي وفهم المعاني المختلفة للفعل الاجتماعي.

ويمكن التفريق بين المنهج الإثنوميثودولوجي وباقي المناهج الوضعية في أن الإثنوميثودولوجيا هي محاولة لفهم أفراد الجماعة من الداخل من خلال تصوراتهم العقلانية التي يكونونها خلال عملية التفاعل مع الآخرين، وكذلك من خلال المعاني الذاتية التي يضفيها هؤلاء الأفراد على أفعالهم، فمحاولة الفهم بالنسبة للباحث من خلال هذه المنهجية تنطلق من هؤلاء الأفراد أنفسهم، من تصوراتهم وأفكارهم ومن مختلف التقنيات والطرق والاستراتيجيات التي يطورونها في حياتهم، هذا الذي يختلف عن المنهجية التقليدية في صورتها الوضعية التي تقصي الفرد في التحليل انتصارا لموضوعية الطرح.

سادسا- الطريقة الجينالوجية:

الطريقة **الجينالوجية** (The Genealogical Method) في الأنثروبولوجيا هي إحدى أهم المناهج الميدانية التي طورها الأنثروبولوجيون لدراسة **القرابة، والتنظيم الأسري، والبناء الاجتماعي** في المجتمعات التقليدية. ويُعد **ويليام ريفرز W. H. R. Rivers** (أحد رواد الأنثروبولوجيا البريطانية) أول من صاغ هذه الطريقة بشكل منهجي سنة **1910** أثناء دراساته لسكان مضايق جزر توريس.

وهي منهج يقوم على **جمع وتسجيل نسب الأفراد** ومعلومات القرابة بينهم في شكل **شجرات نسب (Genealogical Charts)**، بهدف فهم:

- كيفية تكوين الأسرة والعائلة والعشيرة.
- أنماط الزواج (باتريلوكالي – ماتريلوكالي – تبادلي...)
- قواعد تحريم الزواج.
- البنية الاجتماعية والتراتبية.
- تقسيم الأدوار والوظائف بين الأقارب.
- كيفية انتقال الملكية، والوراثة، والسلطة.

بمعنى آخر: **هي دراسة المجتمع من خلال تحليل شبكات القرابة والنسب.** وذلك عن طريق رسم تخطيطي يبين أصول وفروع العائلة (شجرة العائلة)، للتوصل إلى معلومات عن النظام العائلي والنظام الاجتماعي في المجتمع أو الجماعة المدروسة. ويستخدم هذا المنهج أو الطريقة في الأنثروبولوجيا لدراسة القرابة، لأن القرابة في المجتمعات التقليدية تُعد أساس التنظيم الاجتماعي، محور السلطة، مصدر الحقوق

والالتزامات، عنصرًا محدّدًا للهوية، بنية مركزية للتفاعل الاجتماعي. ولهذا اعتُبرت الطريقة الجينالوجية أداة ضرورية لفهم *البناء الاجتماعي* كما أكدعلى ذلك راد كليف–براون وفورتس وإيفانز بريتشارد.

- ويتم تطبيق هذه الطريقة **بطرح أسئلة ميدانية حول النسب:** –من هم والداك؟ –من هم خوتك؟ من تزوج من؟ –من أبناء من؟ –من ينتمي إلى أي عشيرة أو خط نسب؟ ثم **رسم شجرة نسب (Genealogical Chart)**، وذلك من خلال استخدام رموز خاصة: ○دائرة = أنثى □مربع = ذكر —خط أفقي = زواج | خط عمودي = نسل. ثم يتم **تحليل الأنماط** بحيث يتم التركيز على: نمط زواج الأقارب، الانتساب الأبوي أو الأمومي، علاقات العم والخال، أدوار الأقارب داخل الأسرة الممتدة. ثم يتم في الأخير **مقارنة شبكات القرابة عبر الأسر والعشائر**. فمثلا لو درسنا مجتمعًا قبليًا، سنقوم بتسجيل نسب كل عائلة، ثم نربط العلاقات لنعرف: من يتزوج من؟ من يرث ماذا؟ من يحمي من؟ كيف تتشكل العشائر والفروع؟ ومن خلال ذلك نفهم النظم السياسة، الاقتصادية، العادات، وحتى المعتقدات.

سابعا- منهج القياس البشري (الأنثروبومتري):

القياس البشري –الأنثروبومتري Anthropometry – هو أحد المناهج الأساسية داخل **الأنثروبولوجيا الفيزيقية** (هناك من يعتبره فرع من فروع الأنثروبولوجيا الفيزيقية)، ويُعنى بدراسة **أبعاد الجسم البشري** وقياساته بطريقة علمية دقيقة لفهم الاختلافات الفردية والجماعية بين البشر. حيث كان يُستخدم هذا المنهج منذ القرن التاسع عشر لدراسة **التنوع البيولوجي الإنساني**، والتكوين الجسمي، والنمو، والصحة، والعلاقة بين الخصائص البدنية والعوامل البيئية أو الوراثية.

فالأنثروبومتري هو: **القياس العلمي لأجزاء الجسم البشري من أجل دراسة شكله، حجمه، نسبه، وخصائصه الفيزيائية**. ويستخدم أدوات دقيقة لتسجيل:

- الطول
- الوزن
- نسب الأطراف
- قياسات الجمجمة
- محيطات الجسم
- سمك طبقات الجلد وغيرها.

يُستخدم القياس البشري لتحقيق عدة أهداف، أهمها: **دراسة التنوع البشري** مثل الفروق بين المجموعات السكانية من حيث: القامة، شكل الجمجمة، بنية الجسم، نسب الأطراف. **دراسة النمو والتطور** من خلال متابعة نمو الأطفال والمراهقين في بيئات مختلفة. **فهم العلاقة بين الجسم والبيئة** مثل تأثير المناخ، التغذية، النشاط البدني، الأمراض على شكل الجسم ووظائفه. **التمييز بين الأنماط الجسمية**

كما في تصنيف سوماتوتايب: نحيف، ممتلئ ، عضلي. **الدراسات الجنائية** من خلال المساعدة في: تحديد هوية الهياكل العظمية، التمييز بين الجنسين، تقدير عمر وهيئة المتوفين. **التطبيقات الطبية والصحية** مثل تصميم: الأطراف الصناعية، الأجهزة الطبية، الملابس والأحذية، مقاعد السيارات، أدوات العمل الآمنة.

كما يستخدم القياس البشري من أجل تصنيف السلالات البشرية من حيث الصفات الجسمية، وذلك بالتركيز على **طول القامة** (بحيث من هم تحت 1.48 م أقزاما، بين 1.48 و1.58 قصار القامة، بين 1.58 و 1.68 متوسطي القامة، بين 1.68 و 1,72 طوال القامة، وأكثر من 1.73 طوال جدًا)، **شكل الرأس** (طول وعرض الرأس وطول وعرض مقدمة الرأس والجمجمة)، **معامل الأنف** (عرض وطول الأنف)، **ولون البشرة** من خلال التركيز على كمية المادة اللونية في الجلد (الميلانين) وهناك من يعتمد على كمية الفيتامين ج و د في الجلد.

ورغم أهميته، فإن القياس البشري **تعرّض لانتقادات** عندما استخدم في الماضي لتبرير أفكار خاطئة عن "التفوق العرقي" خلال القرن 19 وبداية 20. الأنثروبولوجيا الحديثة ترفض تمامًا أي تصنيف عنصري وتستخدم الأنثروبومتريا فقط لأغراض **علمية وصحية وإنسانية**.

ثامنا- المنهج الإثنوغرافي♦:

يعتبر المنهج الإثنوغرافي **المنهج المميز** والأكثر استخدامًا في الدراسات الأنثروبولوجية (خاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية)، حيث كان في بدايته خاصًا بالأنثروبولوجيين فقط قبل أن ينتقل إلى باقي العلوم الاجتماعية الأخرى (خاصة علم الاجتماع)، وقد ارتبط هذا المنهج **بالدراسات الحقلية (الميدانية)** التي ظهرت بداية لدى الأنثروبولوجيين الأمريكيين (خاصة فرانز بواس) قبل أن تنتقل إلى بريطانيا ثم باقي الدول الأخرى، وقد جاءت هذه الدراسات الحقلية كردة فعل على أنثربولوجيي القرن التاسع عشر (وبشكل خاص أنصار الاتجاه التطوري)، الذين كانوا يعتمدون بشكل أساسي على كتابات الرحالة والمبشرين والضباط العسكريين والإداريين وغيرهم من غير المتخصصين في الأنثروبولوجيا في دراساتهم وصياغة نظرياتهم، وكان يطلق عليهم تسمية **أنثروبولوجيو المكاتب** أو **الأنثروبولوجيون الكرسيّون** أو **أنثروبولوجيو الكراسي**، كناية عن بقائهم في مكاتبهم وعدم نزولهم للميدان لجمع المعطيات عن الشعوب المدروسة بأنفسهم.

وقد ظهرت في البداية بعض الدراسات الحقلية مثل دراسة بواس حول **قبائل البافين** في كولومبيا، ودراسة لويس مورغان للإيروكواي، لتأتي **بعثة كامبردج إلى جزر مضائق توريس** لتكون نقطة

♦ **ملاحظة مهمة**: المنهج الإثنوغرافي هو المنهج الأساسي في الدراسات الأنثروبولوجية، والذي سيتم التركيز عليه في هذه المحاضرة دون غيره من المناهج، كما أن هذا المنهج هو المعني فقط بالامتحان الكتابي في نهاية السداسي أما المناهج الأخرى فهي غير معنية.

مفصلية في تحول وتطور الدراسات الحقلية في الأنثروبولوجيا وظهور ونشأة الأنثروبولوجيا كعلم مستقل فيما بعد، حيث تم إرسال عدد من الأنثروبولوجيين كانوا في الأصل ينتمون إلى تخصصات علمية مختلفة (خاصة التخصصات التقنية)، وقاموا بدراسة حقلية حول شعوب المنطقة امتدت بين **سنتي 1898 و1899**، كان على رأس البعثة **هادون** الذي برز فيما بعد في مجال الدراسات الحقلية، وكوّن عدد من الأنثروبولوجيين ضمن جامعة كامبردج في مجال الدراسات الحقلية، وبرز ضمن تلامذته كل من **ريفرز** و**سليجمان**، واللذان بدورهما كوّنا عددًا من الأنثروبولجيين برز من بينهم كل من **راد كليف براون** و**برانسلاو مالينوفسكي**، واللذان كان لهما الدور الأبرز (خاصة مالينوفسكي) في إرساء قواعد الدراسات الحقلية والمنهج الإثنوغرافي على أسس متينة. لكن ما يعاب على الدراسات الحقلية الأولى كونها **دراسات سطحية وغير مركزة وغير معمقة**، وذلك بسبب قصر مدة إقامة الباحثين، حيث كانوا يقيمون في المجتمعات المدروسة لمدة لا تتجاوز الشهر أو الشهرين، إضافة إلى جهل الباحثين باللغات الأصلية للشعوب المدروسة، ثم إن عدم توطيد علاقات الباحثين مع السكان المحليين هو كذلك كان من بين العوائق التي أعاقت حصولهم على المعلومات اللازمة.

لتأتي بعدها دراسة **راد كليف براون** حول سكان **جزر الإندمان** في شمال المحيط الهندي والتي امتدت لسنتين بين عامي **1906 و1908**، والتي تعتبر أو لمحاولة لفحص النظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية بالرجوع إلى مجتمع تقليدي معين، من خلال الاتصال المباشر للباحث بموضوع دراسته، فقبلها كان الباحث الأنثروبولوجي كالمؤرخ يعتمد على الوثائق والمدونات كمادة خام في دراسته. ثم الدراسة الأبرز للأنثروبولوجي البريطاني من أصل بولندي "**برونسلاو مالينوفسكي**" حين أقام لمدة أربع سنوات كاملة في دراسته الحقلية عن سكان **جزر التروبرياند** التي تقع في غينيا الجديدة بين سنتي **1914 و1918**، والتي أرسى خلالها قواعد المنهج الإثنوغرافي والدراسة الحقلية في الأنثروبولوجيا، وقدّم مجموعة من المبادئ والخطوات والشروط التي ينبغي على الباحثين الالتزام بها، لازالت هذه القواعد تسري إلى غاية اليوم في مختلف أقسام ومعاهد الأنثروبولوجيا في مختلف أرجاء المعمورة. وكان مالينوفسكي **أوّل** من استخدم في دراسته لغة الأهالي أنفسهم، وعاش بينهم مدة أربع سنوات حيث تقمص نظمهم وطقوسهم وشعائرهم الخاصة، وتوجهت دراسته بالتوصل إلى نظام التبادل المعروف باسم {الكولا} واستخدم في دراسته المنهج الاثنوغرافي التكاملي حيث قام بدراسة شاملة لسائر النظم الاجتماعية التي لها علاقة اتصال بنظـام "الكولا". ثم جاء من بعده تلميذه "**إيفانز بريتشارد**" وقام بدراسة اثنوغرافية لثلاث مجتمعات مختلفة فيما بينها سنة 1927، فدرس مجتمع "**الأزاندي Azade**" الذي ينتمي إلى مجموعة الشعوب السودانية وهو مجتمع يعيش على الالتقاط مع بعض الزراعة البسيطة، ومجتمع " **النوير Nuer** " وينتمي هذا المجتمع إلى الشعوب النيلية بجنوب السودان والمجتمع الثالث هو مجتمع بدوي ببرقة، وهذا الأخير يختلف عن النوير في اللغة، والديانة، والعادات، والتقاليد.

إن اعتماد أنثربولوجيي القرن التاسع عشر على المنهج المقارن للقيام بالدراسات الأنثروبولوجية، قد إنتابه بعض القصور، فلم يعد المنهج العلمي الأمثل، فالمقارنة التي أجراها الأنثروبولوجيون في ذلك الوقت كانت تقوم على **القراءات الواسعة**، ومحاولة جمع المعلومة من هنا وهناك، خاصة ما ورد في كتب الرحالة، والمبشرين والحكام العسكريين بالمستعمرات، مما جعل من دراساتهم وأبحاثهم تتصف بالسطحية وقلة الضبط المنهجي وكمثال على ذلك، ما شاع حول الرجل البدائي، فهناك من وصفه بـ المتوحش، وآخر وصفه بالإنسان الهمجي، وفريق ثالث أطلق عليه إسم القرد الاجتماعي، إن المقارنة في الدراسات الأكاديمية، إذا أردنا أن تكون علمية وصحيحة، فلا بد من الإعتماد على ما هو كائن في الميدان البحثي، وملاحظة مكوناته، وبذلك نستطيع تحديد وتصنيف ما هو مشترك من الملامح بين المجتمعات، وغير المشترك.

وهذا الذي دفع الأنثروبولوجيين فيما بعد للقيام بدراسات إثنوغرافية، وذلك بنزولهم وتنقلهم إلى ميدان الدراسة، والاتصال بالأفراد هناك، والإقامة بينهم لمدة قد تطول حسب الغرض من البحث، وفي هذا المجال يرى " **برانسلاو مالينوفسكي**" أنه يجب على الباحث الأنثروبولوجي، أن **لا تقل مدة إقامته في مجتمع البحث عن سنة كاملة**، وذلك **لتعلم اللغة المحلية** حتى إجادتها، وكذلك تمثل الأنماط والشعائر والطقوس في ذلك المجتمع . فالمبشر – حسب إيفانز بريتشارد – الذي يريد تحويل أحد الشعوب البدائية إلى المسيحية يحتاج إلى أن يكون على شيء من المعرفة بنفس معتقداتهم وممارساتهم الدينية، وإلا إستحال عليه أداء المهمة، فنجاح العملية التبشيرية مرهون باستخدام لغة الأهالي ذاتها، أي وفق مفهوماتهم وتصوراتهم، وكذلك الأمر بالنسبة للانثروبولوجي.

فقد أكد مالينوفسكي على ضرورة دراسة الشعوب من الداخل وليس من الخارج (أي رؤية طقوسهم وممارساتهم وسلوكاتهم من وجهة نظر الأهالي أنفسهم وفق رؤية وظيفية وليس من وجهة نظر الباحثين)، فهو يرى أنه "**لا يمكن فهم الحياة الاجتماعية لأي شعب من الشعوب إلا إذا درست دراسة مركزة**"، كما دعى إلى ضرورة أن يتخصص كل أنثروبولوجي في **دراسة مجتمع واحد –أو على الأكثر ثلاثة مجتمعات**– طيلة حياته البحثية وفق ما يعرف **بتقليد مالينوفسكي**. هذا وقد شدّد مالينوفسكي على ضرورة إجراء **الدراسة المركزة** والنزول إلى الميدان وإجراء الدراسة الحقلية من خلال عيش الباحث لمدة لا تقل عن سنة مع الشعوب المدروسة وجمع المعطيات بنفسه، حيث يقول مالينوفسكي: "**لا يجب أن نصدق ضمنيًا ما يقوله الناس ويردّدونه عن حياتهم، فهم قد يعلنون خلاف ما يبطنون ويقولون أشياءً بينما يمارسون أشياءً أخرى في الواقع، لذلك فإنه من الأهمية بما كان أن يعيش الأنثروبولوجي بين السكان ويعايشهم لمدة سنة على الأقل، حتى يقف بنفسه على تفاصيل دورة حياتهم اليومية الحقيقة كما يمارسونها**".

- ومن بين المبادئ والشروط التي يقوم عليها المنهج الإثنوغرافي والبحث الأنثوبولوجي (الدراسة الحقلية) عند دراسة مجتمع تقليدي حسب مالينوفسكي:

– العيش فترة كافية من الزمن مع المجتمع المدروس (من سنة إلى 3 سنوات)؛ بينما يرى إيفانز بريتشارد أن الفترة الزمنية لا يجب أن تقل عن 6 أشهر على الأقل؛

– دراسة شعب واحد خلال فترة الدراسة، حيث يرى مالينوفسكي –كما سبق وأن ذكرنا– أنه على كل باحث أنثروبولوجي أن يتخصص في دراسة من شعب واحد إلى ثلاثة شعوب طيلة مشواره البحثي؛

– الصلة الوثيقة مع الأهالي طيلة فترة الدراسة، مما يسمح للباحث بمتابعة حياة الجماعة من داخل المجتمع وليس من خارجه، ويسمح له بكسب ثقتهم ما يجعلهم يمارسون حياتهم وسلوكاتهم بطريقة عفوية ولا يشعرون بأنهم محل للملاحظة والمراقبة. وفي هذا السياق يرى بعض الباحثين أن الأنثروبولوجي قد فشل في بحثه إذا لم يشعر هو والأهالي بالأسى لحظة فراقهم بعد إنهاء الدراسة؛

– ضرورة تعلم واستخدام اللغة الأصلية (المحلية) للمجتمع المدروس، وذلك لفهم طريقة تفكيرهم وتفاصيل حياتهم فاللغة ليست مجرد أداة للتواصل بل هي وعاء الثقافة وأسلوب للتفكير، فقد تضيع الكثير من المعاني والرموز والدلائل إذا تم ترجمة الكلام إلى لغة غير اللغة الأصلية؛

– دراسة الثقافة والحياة الاجتماعية ككل للمجتمع المدروس دراسة شاملة من جميع النواحي، من خلال تتبع الأنشطة والممارسات في حياتهم وروتينهم اليومي العادي، وخلال المناسبات والأعياد والاحتفالات والأحداث غير الاعتيادية كالوفاة وولادة الأطفال وغيرها؛

– ذهاب الباحث الأنثروبولوجي إلى المجتمع المدروس بمفرده، ويستقر ويندمج معهم بحيث يصبح فردًا منهم يشاركهم تفاصيل حياتهم اليومية وممارساتهم المختلفة، ويترك كامل التصورات والأحكام السابقة عن المجتمع جانبًا، ويقطع اتصاله بالعالم الخارجي بصورة تامة ويحصر اهتمامه بالجماعة التي يدرسها.

➢ **كما يشترط مالينوفسكي في الباحث الأنثروبولوجي توفر جملة من الشروط والصفات التي تؤهله للنجاح في الدراسة الحقلية وتطبيق المنهج الإثنوغرافي والحصول على معلومات صادقة ودقيقة، منها:**

– التكوين الجامعي في مجال الأنثروبولوجيا أو أحد الفروع القريبة منها، بحيث يكون التكوين مزيجًا بين المعرفة النظرية والتدريب الفني الميداني؛

– أن يكون لديه معرفة واسعة بالنظريات والمعلومات العامة في الأنثروبولوجيا وإثنوغرافية المنطقة التي يدرسها؛

– أن يكون لديه هدف علمي واضح لموضوع بحثه وأن يتعلم ما الذي يبحث عنه وكيف يقوم بالملاحظة؛

– أن يتحلى بالتجرد العلمي والموضوعية (والتخلي عن الذاتية والأحكام القيمية) بحيث يلاحظ تقاليد وعادات وممارسات الجماعة ويدرسها ويصفها كما هي في الواقع بلا زيادة ولا نقصان ولا أحكام؛

– أن يتمتع بمجموعة من الصفات الشخصية والمزاج الذي يمكنه من تنفيذ دراسته على أكمل وجه (مثل القدرة على تحمل العزلة والظروف القاسية وغير الصحية في الكثير من هذه المناطق التي تعيش فيها المجتمعات المدروسة/ القدرة على التكيف مع الظروف الجديدة وأسلوب الحياة الغير معتاد نفسيًا وعقليًا

ووجدانيًا/ القدرة على تمثل المجتمع في نفسه، والقدرة على أن ينسى نفسه ويتخلى عن مقومات شخصيته).

- خطوات البحث الأنثروبولوجي (الدراسة الحقلية):

يمر البحث الأنثروبولوجي بمجموعة من الخطوات والمراحل التي تسبق الدراسة وأخرى تكون أثناء إجرائها وأخرى تكون بعد نهايتها؛ يمكن إيجازها فيما يلي:

1) ما قبل مباشرة الدراسة:

– اختيار وتحديد الموضوع الذي يريد الباحث دراسته تحديدًا دقيقًا، ثم اختيار المنطقة أو المجتمع الذي يود إجراء تطبيق دراسته حوله (بحيث يكون الموضوع ذو أهمية علمية ولدى الباحث رغبة شخصية لدراسته، كما ينتبه لتوفر الإمكانيات المادية والمعنوية لإنجازه ولا توجد أية عوائق تحول دون ذلك)؛

– الإعداد البيبليوغرافي: من خلال جمع وقراءة كل ما كتب عن الموضوع أو المجتمع المدروس (الدراسات السابقة)؛

– كتابة مشروع البحث: ما الذي يريد أن يدرسه بالضبط؟ كيف ينوي إنجاز البحث؟ ما هي الدراسات السابقة حول الموضوع وحول المجتمع المدروس؟ ما هي الميزانية التقديرية؟ ما هو البرنامج الزمني والخطة اليومية؟ ما هي الجهات التي سيتعامل معها لإنجاز البحث؟ وغيرها من التساؤلات؛

– إعداد الميزانية: والتي تشمل نفقات السفر، التنقلات الداخلية، نفقات الباحثين المشاركين، نفقات الإطعام والاحتياجات الشخصية، نفقات مستلزمات البحث، الهدايا التي يقدمها للأهالي والمتعاونين مع البحث قصد كسب ودهم وتسهيل الاندماج معهم وغيرها من النفقات؛

– الاستعداد للبحث: ويشمل ذلك الحصول على الموافقات الإدارية والعلمية، إعلام الجهات الشعبية والإدارية في منطقة الدراسة (إعلامهم بإجراء البحث والهدف منه)، الاتصال بالأشخاص المتوقع منهم تسهيل عملية البحث، الاتصال بالمعاهد القريبة من المجتمع المدروس لإمكانية الاستفادة منها، تحضير مكان الإقامة والفئات التي سيتعامل الباحث معها، الإعلام عن مهمة البحث بصدق وصراحة؛

– اختيار وحدة الدراسة في المجتمع المدروس والتي قد تكون أفراد أو جماعات معينة أو الأسر مثلا.

2) مرحلة الدراسة الحقلية (الميدانية):

والتي تمتد من ستة أشهر إلى سنوات عديدة.

– الوصول إلى المنطقة ودخول المجتمع المحلي وإرساء العلاقات الأولية مع السكان والاحتكاك بهم والعمل على كسب ودهم وثقتهم قدر الإمكان والشروع والشروع في تعلم لغتهم. وتسمى هذه المرحلة مرحلة البحث السلبي بحيث يخصص الباحث أول شهر أو شهرين في تقديم نفسه وبناء العلاقات مهع السكان والتكيف مع البيئة الجديدة وإجراء الدراسات التمهيدية قبل الشروع في جمع البيانات؛

– مرحلة البحث الإيجابي من خلال الشروع في جمع البيانات واستخدام التقنيات والمناهج، وذلك بشكل يومي عن طريق العيش مع السكان ومشاركتهم حياتهم، واعتماد طرق وأدوات جمع البيانات المختلفة (الملاحظة بالمشاركة، المقابلة، المذكرات، الصور الفوتوغرافية، أشرطة التسجيل الصوتي، الوثائق المدونة حول الموضوع ...)؛

– تدوين البيانات بحيث يحرص الباحث على تدوين كل صغيرة وكبيرة عن ما يلاحظه ويعايشه حتى تلك التفاصيل التي تبدو تافهة، ومن الأفضل أن يكون التدوين في مكان الحادثة وأثناء حدوثها أو على الأقل في أقرب فرصة ممكنة بعد الملاحظة مباشرة حتى لا ينسى أي تفصيل، ويكون التدوين والتسجيل بصورة يومية على الأقل (يكتب تقريرًا مطولًا عن حوادث اليوم)، ومن الأفضل تصنيف المذكرات التي يدون فيها حسب فهرس الموضوعات الأساسية يدرسها الباحث حتى لا تختلط المعلومات ويسهل تفريغها فيما بعد.

3) ما بعد الدراسة الحقلية:

بعد استكمال جمع البيانات والمعلومات الإثنوغرافية اللازمة حول الموضوع المدروس، تأتي المرحلة التي تعقب وتلي مرحلة إجراء الدراسة الحقلية وتضم الخطوات التالية:

– التحضير لإنهاء الدراسة من خلال إعلام الأهالي والإخباريين والمتعاونين مع الباحث بقرب إنهاء الدراسة بفترة كافية، والتحضير للسفر وجمع الأغراض والأدوات اللازمة مع الخيار بين أخذ المعدات أو أو إهدائها للأهالي أو تركها في مكان آمن في حالة كان يخطط الباحث للعودة مرة أخرى؛

– إنهاء الدراسة في الوقت الذي يرى الباحث أنه استطاع جمع البيانات الكافية حول موضوع البحث لدرجة التشبع، بحيث تصبح المعلومات التي يجمعها الباحث مكررة ولا جديد فيها؛

– كتابة تقرير الدراسة: بعد عودة الباحث إلى موطنه يشرع في تصنيف البيانات الإثنوغرافية التي قام بجمعها وتحليلها ومحاولة تفسيرها والوصول إلى النتائج التي توصلت إليها الدراسة، والتي قد تكون التحقق من فرضيات معينة أو الإجابة عن تساؤلات معينة أو الوصول إلى نظريات وقوانين معينة، ليقوم الباحث بعدها بكتابة التقرير النهائي للبحث والدراسة يعرض فيه الإشكالية التي عالجها وجميع الخطوات المنهجية حول الدراسة وتفاصيلها وخطواتها والنتائج المتوصل إليها مع الحرص على ذكر كل الجزئيات المتعلقة بالدراسة.

فالأنثربولوجيا تشترك مع العلوم الطبيعية والاجتماعية في بعض المناهج، وتتفرد في مناهج أخرى، كما أن لكل فرع من فروع الأنثربولوجيا مناهجه الخاصة التي قد تتفق أو تختلف عن باقي الفروع، فعلى العموم تبقى طبيعة الموضوع المراد دراسته إضافة إلى البيانات المراد الحصول عليها والتأكد منها هي المتحكمة في اختيار المنهج المناسب، وقد اختلف رواد وعلماء الأنثروبولوجيا في الاعتماد على مناهج البحث، فكل يدلو بدلوه في هذا المجال؛ ويبقى المنهج الإثنوغرافي والدراسة الحقلية الميدانية من مميزات البحث الأنثروبولوجي دون غيره من مناهج البحث في العلوم الأخرى.

II- أدوات وتقنيات جمع البيانات في البحث الأنثروبولوجي:

إذا كانت المعلومات التي تثار حول الشعوب تعتمد على طرق غير علمية (أي لا تعتمد على المنهج العلمي) قبل نهاية القرن التاسع عشر نتيجة الاعتماد على ما يقرره الرحالة والتجار والعسكريون...إلخ، فإنها اتخذت بعد ذلك سبيلا آخر من خلال الدراسة الميدانية للجماعات والشعوب وتطبيق بعض الطرائق العلمية، ولعل أحد أهم الشروط العلمية في الدراسة الأنثروبولوجية هو حتمية نزول الباحث إلى الميدان وإقامة ملاحظاته عن ثقافة ونظم المجتمعات المدروسة بشكل مباشر، ولعل أول دراسة ميدانية في هذا العلم حسب بعض الكتابات "هي دراسة بعثة جامعة كمبردج لمنطقة مضايق – توريس –في المحيط الهادي في عامي 1898 و 1899، وترأس العلامة الانجليزي – هادون –تلك البعثة، رغم أن البعض الآخر يتحدث عن تلك الدراسات التي قام بها " فرانز بواس" عن " الإسكيمو " بين عامي 1883 و1884، وقد توالت الدراسات على هذا النحو فكانت هناك دراسات ذات قيمة كبيرة لعل أهمها دراسة مالينوفسكي عن قبائل "التروبرياند" والتي دامت أربع سنوات 1914-1918 حيث كانت هذه الدراسة الأولى التي استخدمت فيها لغة الأهالي وتم من خلالها تقمص طريقة عيشهم وممارسة عاداتهم الاجتماعية.

فقبل أن يقوم الباحث بالدراسة الحقلية عليه أن يحدد نوع وشكل المعلومات التي يريد الحصول عليها سواء كمية أو كيفية وأن يحدد الأدوات التي يجمع بها هذه المعلومات، فهناك من البحوث التي يكتفي فيها بأداة أو طريقة واحدة وهناك ما تتعدد فيها الطرق، وسنحاول فيما يلي أن نعرض أهمها:

1/الملاحظة بالمشاركة (الملاحظة بالمعايشة):

صورة توضح طريقة الملاحظة بالمشاركة

يعتبر الأنثروبولوجيون هم أول من مارس الملاحظة بالمشاركة وهذا من خلال **عيشهم في وسط المجموعات البشرية بغية دراستها عن قرب**، ولا تزال هذه التقنية هي الطريقة الأشهر في الأنثروبولوجيا حيث لا نكتفي بملاحظة الناس الآخرين بل نشاركهم، وبهذا فقط نتمكن من تحريك تجاربهم وفهمهم بكل

تفصيل. إن للملاحظة بالمشاركة طموحات أكثر من الملاحظة من دون مشاركة لأنها لا تهدف فقط إلى تقديم عناصر عن الوضع، بل إنها **تتطلب الاندماج في مجال حياة الأشخاص** ولا يتحقق ذلك إلا بقبول الباحث أو إيجاد دور له في المجتمع محل الدراسة، وتطمح كذلك إلى استخراج المعنى الذي يمنحه لها الفاعلين الاجتماعيين.

يكمن الهدف إذن من هذه التقنية في الوصول إلى الفهم المعمق للوضع ومعانيه حتى يكون في استطاعة التحليل الموالي إدراك التجربة المعيشة للأعضاء بهدف فهم الوسط الذي يعيشون فيه بكل شموليات. وعموما يحدد إيفانز بريتشارد شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة كالآتي:

- أن يكون الباحث مختصا وله رصيد نظري كافي في ميدان الأنثروبولوجيا أو العلوم الاجتماعية.
- أن يتخلى الباحث عن قيمه وثقافته بقدر المستطاع حتى يحقق الملاحظة الموضوعية، وهنا نذكر أيضا أهمية طباع وخصائص شخصية الباحث نفسه لما تحمله الملاحظة المشاركة من مشاق (ظروف غير صحية أحيانا، اختلاف طريقة ووسائل الحياة، المأكل...)
- أن تكون فترة الملاحظة والاشتراك مع أفراد مجتمع الدراسة كافية لجمع المعلومات اللازمة بشكل جيد. ويحدد العلماء هذه الفترة على أقل تقدير بستة أشهر وهناك من يحددها بسنة على الأقل كراد كليف براون ومالينوفسكي. وفترة الدراسة مرتبطة بعدة عوامل كطبيعة الإشكالية، حجم الجماعة وطبيعتها حيث توجد مجموعات يصعب الدخول فيها وتقصي معلومات حولها، وقد لقي العديد من الباحثين الرفض من طرف الجماعات المراد دراستها ويكفي كمثال بريتشارد نفسه والصمت الذي لاقاه لفترة زمنية طويلة في قبائل النوير بالسودان.
- أن يعمل الباحث على الحفاظ على علاقات طيبة مع الأهالي طيلة مدة دراسته وهذا من خلال مشاركتهم في معظم جوانب حياتهم الاجتماعية.
- أن يستخدم الباحث ما استطاع في حديثه لغة مجتمع الدراسة إذ كثيرًا ما يفشل المترجمين في نقل الأفكار والمعاني بدقة كاملة.
- أن يدرس الباحث كل جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية حتى وإن كان يدرس موضوعا بعينه لترابط المواضيع الاجتماعية فيما بينها.
- عدم التحيز في نقل بعض المعلومات دون أخرى، أي أن لا يخضع العمل لأهواء الباحث بل يجب التحلي بالموضوعية لأقصى حد ممكن وهذا بالإسراع بتدوين المعلومات.
- الحرص حين نقل ووصف وتحليل الثقافة المدروسة من لغة مجتمع الدراسة إلى لغة الباحث نفسه أي أن يبين ويشرح معنى الظواهر الاجتماعية والثقافية التي لاحظها وأن يبرز هذا المعنى بوضوح.

فعلى العموم؛ تشير تقنية وأداة الملاحظة بالمشاركة (الملاحظة بالمعايشة) إلى مشاركة الباحث في مختلف النشاطات التي يمارسها أعضاء الجماعة المدروسة، فيتعلم الباحث خلال عيشه وسط هذه الجماعة اللغة التي يتكلمون بها، ويمارس ما يمارسون من نشاطات وعادات، ويلبس نفس اللباس الذي

يلبسون، ويحاول أن يبدي السلوكات والتصرفات نفسها التي يسلكونها في حياتهم اليومية، وهذا حتى يكون قريبا منهم فيسهل عليه فهم نمط معيشتهم وتفكيرهم من جهة، وتسهل عليه أيضا تحصيل المعلومات الخاصة بالدراسة، خاصة إذا استطاع أن يشعرهم أنه قريب منهم بما يزيد من ثقتهم به مما يسهل عملية الحصول على المعلومات.

2/المقابلة:

صورة توضح طريقة المقابلة في البحث الأنثروبولوجي

وتشير المقابلة إلى ذلك الحوار اللفظي الذي يتم بين طرفين هما الباحث والمبحوث، حيث يقوم الباحث بتوجيه مجموعة من الأسئلة للمبحوث من أجل الإجابة عليها، ونجد في أدبيات منهجية البحث في العلوم الاجتماعية عموما أن المقابلة ثلاثة أنواع: المقابلة الموجهة (المقننة) والمقابلة نصف الموجهة والمقابلة غير الموجهة (الحرة)، غير أن النوع الأكثر استخداما في حقل الأنثروبولوجيا هو **المقابلة غير الموجهة (الحرة)**، يتم استخدام المقابلة غير الموجهة من خلال مقابلة الباحث لبعض أفراد المجتمع الذين لهم سمعة طيبة والذين لهم خبرة بموضوع البحث، ولهم أيضا اتصال بهذا الموضوع، ويشترط في الباحث أن يعمل على كسب ثقة المبحوثين من أجل الإدلاء بمعلومات غير مزيفة عن الواقع المدروس – وتعرف هذه الطريقة أيضا والتي يتم فيها استخدام أهل الخبرة في معرفة الواقع المدروس بطريقة " **الاعتماد على الإخباريين**– "، وعليه ألا يعمل على توجيه الإجابة نحو وجهة معينة، ويمكن للباحث استخدام آلات التسجيل بشرط أن يكون قد كسب ثقة المبحوثين، أما إذا أحس أنه لم يكسب ثقتهم بعد فعليه تسجيل المعلومات بطريقة لا تثير الشك .

أما عن طريقة المقابلة الموجهة والتي يتم خلالها تحديد مجموعة من الأسئلة في استمارة بحث فإنها نادرة الاستخدام في الدراسات الأنثروبولوجية، وهي لا تتناسب مع طبيعة هذه الدراسات لاتصال هذه الأخيرة أكثر بالمجتمعات البدائية التي لا يعرف بعضها القراءة والكتابة من جهة، والتي لم تتعود على

مثل هذه الطرق من جهة ثانية، لذلك فإن المقابلة الموجهة هي أكثر اتصالا ببحوث علم الاجتماع الذي يعنى بشكل خاص بالمجتمعات المتمدينة.

3/سيرة الحياة:

تستخدم سيرة الحياة بشكل كبير خلال الدراسات الأنثروبولوجية، وسيرة الحياة تعبر عن اتجاه الباحث نحو شخص معين غالبا ما تكون له خبرة ودراية بمجتمع الدراسة طالبا منه أن يروي له قصة أو سيرة حياته، غير أن هذه القصة لا تخص شخص الراوي فقط ولكن هذا الراوي مدخل لفهم الجماعة التي ينتمي إليها.

وباعتبار سيرة الحياة نوعا من أنواع المقابلة فإنها تخضع لنفس شروط المقابلة من حيث ضرورة توفير الباحث للجو الملائم للمقابلة من خلال بناء الثقة بينه وبين المبحوث، والتصرف بمرونة حتى يتسنى له الحصول على المعلومات اللازمة.

4/الاختبارات النفسية:

ويستخدم الأنثروبولوجيون بعض الاختبارات النفسية خلال دراساتهم الميدانية من أجل تحديد خصائص شخصية أفراد المجتمع موضوع الدراسة، ومن هذه الاختبارات اختبار "رورشاخ" نسبة إلى مخترعه السويسري هيرمان رورشاخ، وهو يتكون من عشر لوحات، رسم على كل لوحة صورة مكبرة لنقطة حبر قذف بها على ورقة فاتخذت شكلا غير منتظم، ويطلب من الشخص أن يصف ما يتصوره من أشكال عندما ينظر لكل لوحة، وبناء على هذا يمكن التوصل لتحديد بعض خصائص شخصية الفرد، وتستخدم هذه الطريقة خاصة في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية وخاصة (لدى المهتمين بالعلاقة بين الثقافة والشخصية)، وأخيرا فإن هناك بعض الطرائق الأخرى التي يمكن أن يستعين بها الباحث الأنثروبولوجي الجماعة المدروسة، لتكون جنبا إلى جنب مع الملاحظة بالمشاركة باعتبارها ملاحظة مباشرة.

5- الاستبيان أو الاستمارة:

هي تقنية تستخدم في جمع المعلومات يعمل بها الأنثروبولوجيون خاصة في المجتمعات أو مع الأفراد القادرين على القراءة والكتابة وذلك من خلال طرح عشرات الأسئلة على المبحوثين تتناول موضوعا محددا أو جوانب عدة من حياة الأفراد بطريقة موجهة ذلك لأن صيغ الإجابات تحدد مسبقا، وقد يحدث أن يوزع الباحث استمارته ثم يجمعها بعد فترة زمنية أو قد يقرأ هو بنفسه الأسئلة على الشخص المبحوث ويسجل إجاباته، مع مراعاة عدم التأثير على المجيب سواء من خلال طريقة القراءة أو التركيز على خيار دون آخر...الخ بحيث يمكن ملؤها بسرعة وتفريغها في جداول ، هذا ما يسمح بالقيام بمعالجة كمية بهدف اكتشاف علاقات رياضية وإقامة مقارنات كمية؛ والمعروف في العادة أن هذه التقنية تستخدم هذه الطريقة مع العينات الكبيرة.

ومن مزايا هذه التقنية : قلة التكلفة، سرعة التنفيذ، تسجيل السلوكات غير الملاحظة، إمكانية مقارنة الإجابات، التطبيق على عينة كبيرة. ومن عيوبها: التزييف الإرادي للأقوال، المعلومات الموجزة أو رفض الإجابة.

- **هذه بصفة عامة أهم الطرق والأدوات المستخدمة في جمع البيانات الأنثروبولوجية، مع الإشارة إلى أن اختيار هذه الأدوات يرتبط بطبيعة موضوع الدراسة ، فهناك مواضيع تستدعي استخدام وسائل خاصة للحصول على معطيات مادية كالآلات الفوتوغرافية وآلات التسجيل بأنواعها ومواضيع تعتمد على جمع وثائق ومخطوطات ومستندات.**